مباحث الوجود والماهية
من
كتاب المواقف
عرض ودراسة

تأليف

د. أحمد الطيب
مدرس العقيدة والفلسفة الإسلامية
بجامعة الأزهر وجامعة قطر

الطبعة الأولى
١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

١ - إن الباحث البعيد النظر فى كتاب « المواقف فى علم الكلام » تستوقفه عدة ملاحظات جديرة بأخذها مأخذ التأمل والاعتبار الجادين .. وأولى هذه الملاحظات التى تستوقف الباحث هى : التسلسل المنطقى فى البناء الفكرى لهذه المواقف التى يمكن اعتبارها نمطا ، أو صورة تعكس — إلى حد معقول — هـذا الوجود الخارجى ممثلا فى عالميه : عالم الشهادة وعالم الغيب .

ولعل من المستحسن — قبل أن يتشعب بنا الحديث حول هـذه الملاحظة — أن نلقى نظرة مجملة على كتاب المواقف ككل ، تشهد بصدق ما نزعمه فى هذه الملاحظة .

ينقسم كتاب المواقف إلى أقسام ستة أو إلى مواقف ستة ، يتنقل الفكر عبرها على النمط التالى :

الموقف الأول :

وهو فى مقدمات هذا العلم ، وأبرز هذه المقدمات :

١ — البحث فى معنى العلم على الإطلاق وانقسامه إلى تصور وإلى تصديق . ثم البحث فى العلم الحسى .

٢ — معنى « النظر » وأقسامه ، وبيان النظر الصحيح الذى يفيد العلم ، والنظر الفاسد الذى لا يفيد شيئاً ذا قيمة فى عالم المعرفة .

٣ — البحث فى الدليل الذى يفيد المعرفة اليقينية ، والدليل الذى يفيد المعرفة الظنية ، وأقسام الاستدلال من: قياس واستقراء وتمثيل ، ثم البحث فى الدليل النقلى وهل يفيد اليقين أولا يفيده .

الموقف الثانى :

ويتناول ما يسمى بالأمور العامة ، وهى أمور تعم أقسام الموجود بإطلاق ولا تختص بقسم واحد بعينه مثل مفهوم : الوجود — الماهية — الوجوب والإمكان — الوحدة والكثرة — العلة والمعلول .

الموقف الثالث :

ويبحث فى الأعراض وأحكامها وأحوالها مثل : الكم — الكيف — النسبة — الإضافة .

الموقف الرابع :

وهو يبحث فى الجوهر وأقسامه مثل : الجسم بوجه عام — الجسم المركب — الجسم البسيط — كما يتناول أبحاثا أخر مثل : النفس البشرية ، النفوس الفلكية ، العقل .

الموقف الخامس :

يختص بمباحث الإلهيات ، أى الأبحاث المتعلقة بواجب الوجود من حيث الاستدلال على وجوده ، وصفاته ، ومن حيث أسماؤه وأفعاله ، كما يبحث فى هذا الموقف أيضاً عن: الرؤية وأفعال العباد ، والتوليد، وما يسمى بمشكلة : الحسن والقبح .

الموقف السادس :

وهو الموقف الأخير ، ويتعلق بالسمعيات ، وأبرز مباحث هـــذا الموقف : مبحث النبوة ـ المعاد ـ الإيمان والكفر ـ الإمامة .

إن النظرة الشاملة لهذه المواقف مجتمعة تقفنا على التسلسل المنطقى الذى زعمناه فى منهج هذا الكتاب :فمنذ بداية الطريق هناك منهج لابد من تحديد ملامحه وإبراز قسماته والاتفاق على سلامة نتائجه والاطمئنان إليها إن سلبا أو إيجاباً ، ولابد للباحث من اصطناع المنهج ومن التقيد به قبل أن يضع قدميه على طريق البحث فى العالم المادى أو العالم اللامادى ، وإلا كان رميه فى عماية وكانت انطلاقته من فراغ ، وإنا لنلاحظ على هذا المنهج ـ الذى تبناه فى جملته ودافع عنه كل مفكرى المسلمين مهما كانت مشاربهم وأذواقهم ـ أنه منهج مكتمل ، يأخذ فى اعتباره ،أول ما يأخذ ، الضروارات العقلية الموجودة فى فطرة البشر على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم ، وأعنى بهذه الضرورات ما يستعلن فى النفس الإنسانية من تساؤلات حول القضايا الكبرى فى العقل البشرى كقضايا ، الألوهية ، والنشأة والمصير ، والخير والشر، وما إليها من قضايا الفلسفة المتعالية ، وهى تساؤلات توجد جنبا إلى جنب مع التساؤلات الأخرى التى تتعلق بالمستوى المادى الحسى الذى تضطرب بين جنباته هذه النفس الإنسانية . وإن كل منهج لا يحترم هذه

التساؤلات الإنسانية الخالدة أو لا يأخذ فى حسبانه قيمة هذه التساؤلات لهو منهج مبتور وناقص ، لا يلبث العقل السوى أن يستوحش منه ويفكره - بل ويصاب فيه بخيبة أمل - فى أول لحظة يتجاوز فيها نشاطه الفكرى حدود هذه المادة وحدود هذه المحسوسات وأولها : حدود الإنسان ذاته .

وإن أقل ما يقال فى هذا المنهج الذى نلتقى به فى بداية كتاب المواقف أنه منهج كامل أو يحاول قدر المستطاع أن يكون كاملا ، فهو يعتمد أولا على شهادة الحس ، وعلى الاحتكام إلى الحواس والمحسوسات ، كما يعتمد ثانياً على العقل وبدهياته . ثم هو يعتمد ثالثاً على الدليل النقلى حين تتوافر له شروط خاصة وحين يطبق فى مجال خاص ، ولا شك أن منهجاً يبتنى على هذه الأسس الثلاثة جدير بأن تتوافر له معظم عناصر القدرة على كشف الحقائق إن لم نقل : عناصرها كلها .

وبعد المنهج نلتقى بالأمور العقلية العامة ، وهى أحق الأقسام الستة بأن تتلو المنهج مباشرة مادامت مقررا تمهيدا ونتائجها ذات صبغة شاملة تتعلق بالعالم المادى واللامادى على السواء . ثم ينتقل بنا الكتاب خطوة فى هذا التسلسل فنلتقى بالعالم الطبيعى الذى يمكن استكباته ودراسته فى أهم مظهريه : الجواهر والأعراض ، وإذن فلابد من تخصيص قسم لدراسة الأعراض وأحكامها . (الموقف الثالث) ، وقسم لدراسة الجواهر وأحكامها . (الموقف الرابع) . وهنا تنتصف المرحلة أو ينتصف الطريق ، وهنا أيضا تقف كل الفلسفات المادية بكل آمالها وطموحاتها ، وتلقى بعصا التسيار غافلة - أو متغافلة - عن النصف الآخر ، برغم من تلامس الحدود وتشابكها وتجاورها ، وإثارتها فى عمق العقل البشرى علامات استفهام حرجة لا تمكن الإجابة عنها إجابة تحت جنوح الشك والارتياب إلا مع افتراض ضرورة المرحلة الثانية وضرورة النصف الثانى ، واعتبارهما بداية

بعدين لمقدار واحد أو وجهين لعملة واحدة ان صح لى مثل هـــذا التعبير .

ومن منطلق هذه الضرورة تظهر الميتافيزيقا وتستمد شرعيتها كعلم له مجال محدّد ، كما أنله دوراً بالغ الأهمية فى دنيا الناس يتمثل أول مايتمثل فى الكشف عن الإجابات العديدة على هذا النمط من الأسئلة المحيرة .

وهنا نلتقى فى كتاب المواقف بالموقف الخامس الذى يتخصص فى طرائق البحث عن الله تعالى ، وعما يتعلق بذاته وصفاته وأفعاله ، وكل ما يمكن دخوله ـ عادة ـ فى مباحث الإلهيات من تصورات عقلية لا أبالغ لو قلت : إنها بلغت حد الاستقصاء التام .

ثم يجيء الموقف السادس الذى يعالج موضوع السمعيات ، مرتبطا مع الموقف السابق بعلاقة وثقى لاتنفصم ، لأن العقل إذا اطمأن إلى قضية الألوهية وصدق بها فلابد له من الإصغاء إلى قضايا سمعية تنتمى إلى طور غير طور العقل ، وإلى مقاييس غير مقاييسه ، إنها القضايا التى لو لم يسمعها من هذا المصدر لما أمكنه أن يتوصل إليها أو يستقل بمعرفتها ، وهنا يدرك العقل أنه وإن كان له مجال أوميدان هو فيه المحور وقطب الرحى الذى به تتماسك الأمور والأشياء وتكتسب قيمتها وخصوبتها وثراءها ، فإن ثمة مجالا لا يملك فيه إلا ينبـــه فينتبه ، ويعرف فيعرف ، ويشار إليه فيدرك ويعلم .

ان كتاب المواقف ـ ومثله معظم تراثنا العقلى القديم ـ حين يؤخذ بهذا الاعتبار فإنه يمثل نهجاً محكما ينتقل بالعقل من المقدمات الى النتائج ومن المحسوس إلى المعقول ، ومن المعقول الى عالم الغيب ليصل فى النهاية الى تصور أبعاد هذا الوجود تصوراً حقيقياً تطمئن اليه النفس ويقر معه قرارها .

٢ — والملاحظة الثانية الجديرة بالاعتبار فى هذا الكتاب هى تقديم دراسة الأمور العامة على جميع الأبحاث الأخرى من طبيعية والهيـــة وسمعية ، وقد عرفنا أن العلة فى هذا التقدم مافى طبيعة الأمور العامة من العموم ومن التجريد الشديدين بحيث يمكن استغلال نتائجها والإفادة منها فى بقية المواقف الأخرى التالية لها ، وكأن الامور العامة - بهذا الاعتبار - تأسيسات عقلية عامة يجب أن تشكل المنطلقات الفكرية لدراسة الجواهر أو الاعراض أو الإلهيات والسمعيات، وفيما أعتقد فإن الإلهيات فى كتاب المواقف - بل وفى علم الكلام والفلسفة الاسلامية بوجه عام - تتأسس على دراسة الامور العامة ، وأن فهمها فهماً دقيقا لابد فيه من فهم الامور العامة أولا ، وكدليل على ذلك فإن صفة القدرة الإلهية ذات ارتباط وثيق بمشكلة جعل الماهيات ، كما أن صفة الوجود لا تفهم أبعادها فهماً واعيا الا اذا فهم أولا مبحث الوجود فى الامور العامة وفهمت التفريعات التى قيلت حول علاقة الوجود بالماهية ، بل ولا يمكن تقويم الاستدلال على وجود الله تعالى بحدوث العالم إلا إذا أخذ فى الاعتبار كل ماقيل فى الحدوث والإمكان ، وهما مبحثان مستقلان من مباحث الأمور العامة .

واذن فدراسة هذه المباحث فى بداية الطريق أمر لامفر منه إذا أردنا لدراسة الإلهيات أن تكون ذات كيان فلسفى مكين ، ذلك أن الإلهيات إنما تستمد تأسيسها العقلى من أبحاث الأمور العامة ، ولعل هـذا مايفسر لنا الإحالات الكثيرة فى صلب الإلهيات على مباحث الأمور العامة .

وليس من الحكمة - فيما أرى - ألا يتاح للدارس المتخصص فى علم الكلام والفلسفة الإسلامية ، إلا هذا القدر اليسير من مباحث الإلهيات والسمعيات فقط دون بقية الأبحاث الأخرى التى نجدها أكثر خصوبة وثراء وتربية للأذهان والعقول ، بل وأزعم أن دراسة الأمور العامة والطبيعيات فى علم الكلام والفلسفة لم تعد ترفا عقليا ولم يعد الاشتغل بها

رجل جدل وسفسطة وقراع ألفاظ ، بل هذا اللون من الدراسة أصبح أمراً أساسياً لامفر منه لتكوين نظرة نقدية جادة لمفاهيم فلسفة معاصرة، مثل مفهوم الديالكتيك الطبيعى فى الفلسفة الماركسية ، أو مثل مفهوم أزلية المادة وأزلية الحركة فى الفلسفات المادية بوجه عام - ولا ينبغى أن يتوهم القارىء أنى أدعو إلى معارضة هذه الفلسفات الحديثة أو المعاصرة بفلسفات العصور الوسطى منطقاً بمنطق ، وطبيعة بطبيعة ، فأنا أدرك تمام الإدراك البعد الشاسع بين هاتين الفترتين من الزمان من حيث المنهج العلمى، والقضايا العلمية ، بل والإطار الفلسفى ذاته .

إن كل هذه أمور لاسبيل إلى المناظره بينها مناظرة دليل لدليل أو حجة لحجة ، لكن أدرك فى ذات الوقت أن المسائل التى يقع فيها الخلاف بين الفلسفة المادية التى تفكر كل شىء وراء المادة ، والفلسفة الإلهية التى لاتتصور أن تكون المادة هى نقطة البداية فى هذا الكون ، هى مسائل ميتافيزيقية فى المقام الأول، وبالتالى فإن الحوار حولها حوار ميتافيزيقى خالص ، فكلام المادى وكلام الإلهى فى هذه المشكلات كلام ميتافيزيقى بغير شك . وإلا فكيف للحس أو للعلم التجريبى - الذى لاتمل الفلسفات المادية من زعمه والتمسح به — أن يحسم قضية العلة الأولى أو يحسم أمر الخلاف حول أسبقية الفكر أو المادة بوسيلة تجريبية لاتخطئها العين الأذن أو اليد أو الانف !

بل كيف يمكن أن تستفتى التجربة العلمية أو الخبرة الحسية فى هذه القضايا ، ولو كانت للتجربة يد تطول هذا المجال لما نشأت - من الأساس - فلسفة مادية وأخرى متيافيزيقية ، ولما أمكن أن يكون ثمة اتجاه مادى وآخر إلهى، ولكان الأمر قد حسم منذ القدم لصالح طرف من هذين الطرفين حسب المعطيات الحسية للتجربة العلمية التى تفتينا فى هذه القضايا ؟!

وإذا كان نمط التفكير فى مثل هذه القضايا الماورائية نمطا ميتافيزيقيا محضا فإن الفلسفة الإسلامية ـ وعلم الكلام ـ من أبرز الفلسفات التى طرحت فى هذا الموضوع تصورات كشفت عن الربط الوثيق بين الطبيعة ومابعد الطبيعة أو بين الفيزيقا والميتافيزيقا ، وإن دراسة الأمور العامة فى هذا المقام ـ أيضا ـ تغدو أمراً له قيمته المتميزة ، ولست أفهم كيف يتسنى للمثقف المسلم أن يكون على بينة مما فى الفلسفات المادية من نقاط ضعف لو لم يكن على بينة مما قاله الفلاسفة المسلمون فى قانون التناقض وفى مفهوم الوجود ، ومشكلة العلية ومشكلة الحركة والزمان والمكان . . . الخ . هذه المشكلات الفلسفية التى كانت تتصل بصورة أو بأخرى بما كان يسمى بعلم الطبيعة أو العلم الطبيعى فى فلسفة العصور الوسطى .

ومرة أخرى لانمارى فى أن العلم الحديث المتطور قدما قد تجاوز معظم نتائج هذه الأبحاث المدرسية فى ميدان العلوم الطبيعية إن لم نقل كل هذه النتائج . ولكن هذه المشكلات إن كانت تتصل فى أحد طرفيها بعالم المادة فإن الطرف الآخر يلاصق مشكلات ميتافيزيقية فى لحمتها وسداها . ولامر ما بحث علماؤنا الأقدمون بعض القضايا الطبيعية ـ كالحركة مثلا ـ مرتين : مرة فى الفلسفة الطبيعية باعتبارها ظاهرة مادية تحكم الجسم الطبيعى ، ومرة أخرى فى الفلسفة الإلهية باعتبارها قضية يبرهن على حدوثها وحدوث المادة التى تكون فيها ، ولاشك أن العلم التجريبى الذى يحكم عصرنا هذا قد قلب ما تمخضت عنه هذه القضايا الطبيعية رأسا على عقب وأن ما قاله ابن سينا أو البيرونى أو الرازى فى هذا المجال قد تغير شكلا وموضوعا بحيث لا تمكن المقارنة والمناظرة بين هذا وذاك اللهم إلا إذا كان من باب البحث فى تاريخ العلم ورصد منحنياته ومنعطفاته عبر هذا التاريخ المتطاول ، وهذا أمر بديهى لا يعقل أن يكون محل جدل أو نقاش ، فهو منطق التطور فى حياتنا ذلك الذى لايدع ظاهرة من الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية

إلا ويخضعها لمنهج الكشف عن الجديد ثم استبداله بالقديم واحلاله محله ، بل إن كل نظرياتنا العلمية التى تبهر عقولنا الآن سوف يحيلها هذا القانون بعد قرن أو قرنين من الزمان إلى أحاديث من أحاديث الأقدمين التى تثير من الإشفاق أكثر مما تثير من الانبهار .

ولكن هل يبسط ذلك التطور فى المجال المادى ظله على المجال الميتافيزيقى فيلغى هذه الأسئلة الخالدة التى تتعلق بالمشكلات الأزلية فى عقول الناس ؟! أعتقد أن العلوم التجريبية مهما قدر لها من الارتقاء والتطور فإنها لن تمس هذه الأسئلة ولن تلج مجالها بحال من الأحوال ، بل وأعتقد أن هذه التساؤلات الأزلية فى أذهان الناس لم تتغير ولم تتبدل على طول التاريخ البشرى وإن أختلفت عنها الإجابات من عصر إلى عصر أو من فريق إلى فريق فى العصر الواحد . وإن وجود مثل هذه التساؤلات جنبا إلى جنب مع تطور العلوم الرياضية والطبيعية والإنسانية إن هو إلا حجة على تأصل هذه التساؤلات فى لب العقل البشرى وجوهره . وعلى تأكيد الضرورة القصوى لقيمتها الأساسية فى حياة الناس .

ولست أدرى كيف يمكن أن تكذب هذه التساؤلات أو تزيف ، بل ويلقى فى النار بكل ماقيل جوابا عنها لمجرد أن مختبرات المعامل والأجهزة الحديثة لا تتناول مثل هذه القضايا أو لمجرد أن نهجا فلسفيا معينا يحصر مقياس التحقيق والتزييف فى الواقع الحسى لهذا العالم ويعتبر أية قضية من القضايا تخرج عن نطاق التجربة والخبرة الإنسانية كلاماً لغواً وألفاظاً زائفة لا معنى تحتها ؟!

إن تحديد مقياس الحق والباطل بالتجربة العلمية أو بالخبرة الإنسانية، فوق أنه لا يحل الاشكال، فإن قصارى أمره أن يؤدى إلى التوقف فى مثل

هذه القضايا والامتناع عن الحكم عليها سلباً أو إيجاباً، ولو أن أصحاب هذه المناهج توقفوا فى هذه القضايا انطلاقاً من أن مناهجهم التى طمأنو إليها لاتنال هذه القضايا لكانوا أصحاب دعوى منطقية مقبولة وملتزمة .

أما أن يحكم عليها بالتكذيب مرة وبالتزييف أخرى اعتماداً على مناهج غريبة عنها فهذا هو عدم الاتساق المنطق بعينه .

ثم إن التجربة العلمية ، أقل مايقال فيها إنها أمر محايد ، وإن كنا نرى أن التجربة العلمية بوقوفها دائماً على السبب القريب المباشر تثير باستمرار موضوع العلل القصوى البعيده ، وهو موضوع حيوى تثيره التجربة الحسية ذاتها ، ولا ينحسم أمره إلا بقانون عقلى هو قانون العلية العام ، نقول: إن التجربة العلمية وإن كانت بطبيعتها لاتثبت الميتافيزيقا فإنها بطبيعتها أيضا لاتنفى الميتافيزيقا بل ولاتقلل من شأنها ، والمصدر الوحيد الذى على أساسه تثبت القيمة الموضوعية لهذه القضايا أولا تثبت هو البرهان العقلى المؤسس على البدهيات العقلية التى هى أعدل الأشياء قسمة بين الناس .

من هذا المنطلق أرى أن دراسة هذه المقدمات فى تراثنا العقلى أمر لا مفر منه للباحث فى تيارات العصر الثقافية بحيث يرتد إليه كلما غامت الشكوك والأباطيل فى أفق الحقائق ،

٣ — والملاحظة الثالثة التى تتجلى فى هذا الكتاب هى الدقة المتناهية فى تحديد المعـــانى والألفاظ جميعاً ، والإيجاز الذى يضع القارىء أمام المشكلات مباشرة ، وفيما أعتقد ، فإن كتاب المواقف ربما يكون أحد الموسوعات الفلسفية القليلة التى تبرز فيها هذه المهارة النادرة : الدقة مع الإيجاز، وهو بهذه الخصيصة قد يبدو كتابا ذا أسلوب جاف عسر، أو هكذا يسود هذا الإنطباع فى نفس الباحث فى بداية الأمر ، أما حين تتكشف له الميادين العقلية المترامية الأطراف من وراء هذا الأسلوب الدقيق البليغ فى آن واحد ، فإنه يكون أمام عبقرية تفرض نفسها فرضاً فى هذا المجال

ولك أن تعقد مقارنة سريعة بين كتاب المواقف وكتاب المباحث المشرقية للرازى ـ والكتابان يضربان على وتر واحد ـ لترى أن الإيجى فاق الرازى بالدقة والإحكام القدرة على موازاة اللفظ بالمعنى موازاة تدعو ـ فى كثير من المواضع ـ إلى الدهشة والإعجاب .

ثم إن المواقف يتميز بميزة الشمول واستيعاب المذاهب والتيارات العقلية التى سادت فى الفكر الإسلامى من قبل الإيجى ، والكتاب بهذه الخصيصة يعتبر دائرة معارف فلسفية لا هوتية تعكس الفكر الفلسفى الدينى فى هذه الحقبة التاريخية وتصوره تصويراً لا أبالغ لوقلت إنه شارف حد الكمال ، وحسبك أن تعلم أن الإيجى كان يستقصى فى كل المسائل المعروضة فى كتابه هذا مذاهب الفلاسفة من ناحية ومذاهب المتكلمين من ناحية أخرى، وكان يفصل باستمرار بين مدرسة المعتزلة ومدرسة الأشاعرة التى ينتمى إليها .

ولقد كان عرضه لآراء الفلاسفة وغيرهم عرضاً موضوعياً إلى حد كبير بحيث يترك انطباعاً قويا بأن مهمته مقصورة على عرض هذه المذاهب مجرداً من رأيه الشخصى ، وإن كان فى نهاية المبحث ـ وأحياناً فى بدايته ـ يعرض لنظرة الأشاعرة ويحرص عليها حرصاً بالغاً .

٤ ـ والملاحظة الأخيرة التى تفرض نفسها فى هذا الكتاب هى ملاحظة سلبية فى هذا العمل الرائع الذى اضطلع به الإيجى ، وهى لا تنتقص من قدره ولا من قدر كتابه . إن المقارنة بين كتاب المواقف وكتاب المباحث المشرقية للرازى (المتوفى ٦٠٦ هـ) تؤكد أن الإيجى كان يقفو أثر الرازى فى كثير من قضايا الكتاب ، ويتقيد بخطاه وبأفكاره إلى حد كبير ، وصحيح أن الإيجى والرازى يجمعهما فكر واحد هو فكر الأشاعرة ، وأن اتفاق الاتجاه

الفكرى بينهما مما يصح اتباع اللاحق منهما للسابق، ولكن هل يكفى الاتفاق فى المذهب العقلى بين فيلسوف ومتكلم لأن يجعل أحدهما أشبه بأن يكون ظلا للآخر ؟ !

وفى يقينى أن الإيجى لو قدر له أن يتخلص من تأثير الرازى لكان قد أبدع أكثر مما أبدع وأجاد أكثر مما أجاد . ولعل هذا الذى نفتقده عند الإيجى نجده عند تلميذه التفتازانى ذلك الذى احتفظ لنفسه بقدر كبير من الحرية الفكرية والتأمل الذاتى ، فكان لا يبالى أن ينقد الرازى وغيره . ويكشف عما فى آراء الأقدمين من إيجابيات وسلبيات على السواء ، ولذلك كان كتاب المقاصد - فيما أعتقد - خطوة متقدمة بالنسبة لكتاب المواقف فى هذا الميدان ، وإن كانت السمة الغالبة على عقلية العصر كله آنذاك أنه عقلية تمثل وهضم لا عقلية إبداع وخلق .

ومهما يكن من أمر هذا الجانب السلبى ، فلا تزال قيمة الكتاب تتمثل فى أنه دائرة معارف جامعة لأشهر التيارات الفلسفية والكلامية فى الإسلام حتى القرن الثامن الهجرى .

٥ — اما صاحب الكتاب فهو عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار القاضى عضد الدين الإيجى ولد بإيج ، ولا يعرف تاريخ مولده على وجه التحديد، تصفه معظم المصادر التى ترجمت له بأنه كان إماماً فى المعقول ، وله قدم راسخة فى الأصول والمعانى والعربية ، كما تصفه بأنه كان كريم النفس ، كثير المال كثير الإنعام على طلابه .

وقد تخرج على يديه تلاميذ عظام ، من أشهرهم :

١ — شمس الدين الكرمانى .

٢ — ضياء الدين المغيثى .

٣ — سعد الدين التفتازانى(١) .

أما مؤلفاته فأهمها على الإطلاق : كتاب المواقف فى علم الكلام ، والكتاب يشتمل على مواقف ستة - كما بيناه سلفا - وكل موقف منها يعتبر كتابا مستقلا، ويتفرع عن كل موقف « مراصد » ، وهذه المراصد توازى الأبواب بالنسبة لنظام التبويب العام فى الكتب ، ثم يتفرع عن المراصد «مقاصد» توازى الفصول فى الكتب الأخرى .

ونلاحظ أن تلميذه التفتازانى بنى كتابه المقاصد على « مقاصد » ستة ، ينقسم كل مقصد منها إلى فصول ، كما ينقسم كل فصل بدوره إلى مباحث .

ولقد عرف كتاب المواقف فى العالم الغربى منذ قرن ونصف قرن من الزمان تقريباً حيث نشر « سورنس » الموقفين الأخيرين بشرح الجرجانى سنة ١٨٤٨م فى ليبسيك ، كما نشرت طبعة كاملة للكتاب فى القسطنطينية سنة ١٨٣٩ م(٢) .

وقد شرح المواقف كثيرون مثل الكرمانى والأبهرى والطوسى والمولى حيدر الهروى وغيرهم ، إلا أن شرح السيد الشريف الجرجانى يعتبر أهم هذه الشروح وأدقها على الإطلاق . وقد وضعت حواش على هذا الشرح بلغ عددها اثنتين وثلاثين حاشية أو تزيد(٣) .

---

(١) السيوطى . بغية الوعاة ... ج ٢ ص ٧٥ ، مصر ١٩٦٥ ، ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ... ج ٢ ص ٢٢٩

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٣ ص ١٨٧

(٣) أنظر ترجمة الإيجى فى ذيل كتاب المواقف ، سلسلة مطبوعات فى علم الكلام - مكتبة المتنبى - القاهرة .

ومن كتبه الأخرى :

• العقائد العضدية « فى علم الكلام » . مطبوع، وقد شرحه جلال الدين الدوانى وعليه تعليقات وحواش كثيرة .

• جواهر الكلام ، وهو مختصر لكتاب المواقف . مخطوط.

• الرسالة العضدية فى علم الوضع ، مطبوع.

• المدخل فى علم المعانى والبيان والبديع(١) .

* * *

مات مسجونا بقلعة كرمان سنة ٧٥٦ هـ .

٦ ـ أما الهدف من هذا البحث فهو فى المقام الأول التعرف من المصادر الأصيلة على ماقاله مفكرو الإسلام من فلاسفة ومتكلمين حول أساسيات التفكير العقلى ، والتى تتمثل فى المقام الأول فى بحث الأمور العامة التى هى : الوجود والعدم ـ الماهية ـ الوجوب والإمكان والامتناع ـ الوحدة والكثرة ـ العلة والمعلول ، ثم عرض ما أفهمه بأسلوب مبسط ميسور . وقد كنت فى طريقة العرض بين أمرين :

(أ) تقديم نصوص المواقف فى فقرات مرقمة ، تتلو كل فقرة دراسة توضح النص المرقم بأسلوب سهل يقرب لغة هذه النصوص إلى لغة العصر وأساليبه .

(ب) أو عرض المضامين الفلسفية التى تشتمل عليها مباحث الأمور العامة دون الارتباط بتقديم النصوص .

---

(١) الزركلى: الأعلام جـ ٣ ، ٢٩٥ بيروت ١٩٧٩م.

ولقد لجأت إلى الطريقة الأولى لرغبة منى ـ ملحة ـ فى تحديث هذه النصوص — إن صح هذا التعبير — أو فى تجاوز الأصالة مع المعاصرة ، ولكن بدا لى بعد دراسة هذين المبحثين اللذين يشتمل عليهما هذا الكتاب الذى أقدم له ، أن هذا الأمر يحتاج إلى طاقات عقلية كبرى ، وإلى تمرس طويل مع هذا التراث الطويل العريض العميق ، وأن الأمر بعد هذه المحاولة المحدودة ظل على حاله تقريبا من بقاء المفارقات الشاسعة بين أصالة النص وسهولة العرض . ولهذا السبب نفسه سوف ألجأ إلى الطريقة الثانية لتكميل بقية أبحاث الأمور العامة فى كتاب تال إن شاء الله .

هـــذا وقد اعتمدت فى فهم النصوص المقدمة فى هذا البحث على الكتب التالية :

١ — شرح المواقف للجرجانى ، وهذا أمر لا مفر منه ، فلولا هذا الشرح لظل كتاب المواقف أقرب إلى الألغاز التى لا يعرفها إلا خاصة الخاصة .

٢ — كتاب المباحث المشرقية للإمام الرازى وهو كتاب أساس لكتاب المواقف .

٣ — إلهيات الشفاء لابن سينا وهو كتاب معروف ، وقيمته فى هذه الأبحاث أوضح من أن ينص عليها ، والإيجى كثيراً ما يحيل إليه ويستشهد بنصوصه .

٤ — كتاب شرح المقاصد للتفتازانى ، وقيمة هذا الكتاب تنبع أولا من أن التفتازانى تلميذ الإيجى . وثانياً لما يتميز به هذا الكتاب من متابعة دقيقة لآراء الإيجى ونقدها وتقويمها باستمرار .

وهذا بالاضافة إلى الشرح الممتاز الذى اضطلع به الجلال الدوانى على

العقائد العضدية ، وحواشي المرجاني والخلخالي وعبدالحكيم والسيالكوتي وكلها مصادر أصيلة في موضوع البحث .

ومما ينبغي أن أنبه إليه أنني كنت أتجاوز في مواطن قليلة جداً بعض النصوص أو بعض المباحث الجانبية التي كانت تبدو لي غير ذات شأن في المبحث الرئيسي ، حرصاً على وحدة الموضوع وابتعاداً به عن تشقيقات وتفريعات هي أقرب إلى الجدل منها إلى البرهان العقلي .

وبعـــد /

فإن يكن هذا البحث قد تقاصر دون بلوغ الهدف ، فلا لاشك فيه أنني أفدت منه الكثير والكثير .

د / أحمد الطيب

الدوحة — قطر ٦ رجب ١٤٠٢ هـ

٢٩ / ٤ / ١٩٨٢ م

الباب الأول

مباحث الوجود العدم